

الحادث والتاريخ

الاستاذ مالك بن نبي
مدير التعليم العالي بالجزائر

شعوب الشرق الاوربي فدفعت بهم الى غزو الغرب اللاتيني . ويفسر فعلا الحادث في شكله هذا في نطاق « مجال البحث الاوربي » بيدا أننا اذا ذهبنا بالتحري مذهبا أبعد بأن نطرح هذا السؤال .. ترى كيف نشأت هذه الموجة التي يسميها المؤرخون الالمان « الفولكارفاندرونغ » Volkervanderung اي موجة الشعوب هي الاخرى ؟ وفي الحال يحطم سؤالنا هذا نطاق ما يسميه المؤرخ الانجليزى بحقل الدراسة لان الظاهرة التي كانت لحد الآن شيئا اوربيا تصبح فجأة « حدثا » اسيويا . وبالفعل فان تداعي أسرة مالكة صينية قبل ذلك بقرون هو الذي دفع قبيلتين منغوليتين على المسارعة للنهب والسلب بحيث اصطدمتا ، فكان لاصطدامهما أثره البعيد في دفع شعوب الشرق الاوربي في التيار المسمى « موجة الشعوب » ، أو « الفولكارفاندرونغ » .

فهنا حدث معبر عن تصور تاريخي عالمي على مستوى ذلك الزمان .

وهناك حدث آخر وقع بعد ألف عام من ذلك لا يقل كشفا عن التصور التاريخي العالمي في العصور الوسطى .. ذلكم هو تدخل « تيمورلنك » الذي يغير مجرى التاريخ لان حفيد جنكيز خان قد ظهر بالضبط في الوقت الذي كان يستعد الامير العثماني « بايازيد » وملك القبيلة الموغولية المسماة بالقبيلة الذهبية Horde d'or « تورغتاميش » - احدهما في الغرب والثاني في الشرق على غزو أوربا تلك القارة التي كانت تنفض عنها غبار القرون الوسطى ، واخذت تدخل طريق النهضة Renaissance وهكذا ينقد عمل تيمور

لقد كان التاريخ الى حد القرن العشرين شبه متحف حيث كان ياتي المؤرخ للتزود بالمعلومات عن شعب ما وذلك في زاوية معينة مخصصة لهذا الشعب وسياسته وفنه وأدبه وفلكلوره ... ذلكم هو التصور التقليدي للتاريخ .

بيد انه كان من الممكن بالنسبة للمؤرخ أن يلاحظ في بعض الاوقات السمة المشتركة وصلة الرحم بين بعض زوايا المتحف .. فهو اذ ذاك امام « وحدة » تاريخية معينة .

ولقد يسمي ج أ توينبي هذه الوحدة بحقل الدراسة أو « مجال البحث » (I) . ومجال البحث هذا عبارة عن المساحة التي يتم فيها النسيج التاريخي بفعل حوادث تجد تفسيراتها وغاياتها وأسبابها ومسبباتها في هذا المجال أو الحقل .

وهكذا يوسع توينبي التصور التقليدي توسيعا ملحوظا يعمقه وذلك بتطعيمه بمفهوم « مجال البحث » الذي يطيح بالاطار الوطني حيث كان ينحصر تصور المؤرخ اليوناني (توسيديد) .

الا أن الاطار الجديد الذي يقترحه المؤرخ الانجليزى الكبير كان قد تداعي هو الآخر خلال القرون تحت وطأة دفع الحوادث لتاريخية أقوى وأكثر تشابكا من أن نلتمس لها تفسيراً فيما يسميه المؤرخ الكبير بمجال البحث .

نسقوط الدولة الرومانية مثلا ظاهرة ينسبها المؤرخون الى موجة المهاجرين العارمة التي تدافعت على

1) Champ d'étude

لينك جميع آمال هذه النهضة التي تشكل من غير منازع المقدمة التاريخية لعصر الذرة الذي نعيش فيه .

هل « تيمور لينك » جد عصرنا ؟ فهذا تصور لم نعهده في التاريخ وبزيادة على ذلك فهو تصور لا شك انه كان يقيب عن وعى الامير التتارى نفسه .

ما هي قيمة معركة «مارينيان» على سبيل المثال اذا قيسست باحداث على هذا المحتوى من التأثير العالمى ؟

وعلى هذا يبدو لنا أن التاريخ نسيج معقد مما هو عارض وما هو مقدر .

واننى أتذكر وأنا اكتب هذه الجملة انتقادا وجه الى في صحيفة باريسية غداة نشر كتاب «وجه العالم الاسلامى» باننى أحمل السببية في التاريخ أكثر مما تتحمل . ولو أجبت على هذا الانتقاد لقلت بكل بساطة اننى لست أحمل التاريخ بل هو الذى يحملنى . ولست أرى داعيا لازاحة البصر عن تصور يفرض نفسه علينا . والواقع أن هذا يستدعى اقامة نظرية كاملة للحدث التاريخى .

ان الحادث عند انقذافه يكون محلا بكل ماتستطيع الطبيعة البشرية أن تودعه فيه من غرض مصلح وهوى وطموح وبفض ووهم الخ ...

انه صاروخ منطلق في الزمان مدفوع بكل ما يحرك الانسان . ولا ريب ان أثره ذو بال ولو اقتصرنا على النظر اليه من هذا الجانب البشرى .. فقد يكون غزوا يغير الخريطة السياسية او ثورة تغير حياة أمة او ميلاد دولة او سقوط أخرى او ظهور فن صناعى او اختراع فن آخر .

وكل هذا يحقق ما يكون قد سبق تصميمه وتديره عند منشئه وقد لا يحققه ولكن دائما في اطار « مجال بحث معين » .

لقد كانت الحرب العالمية الاولى حادثا تسببته ارادة التوسع الالمانية - اذا وضعنا حادث سرايفجو Sarajevo البسيط جانبا - تلكم كانت شحنته التاريخية عند انطلاقه .

وقد كانت الحرب العالمية الثانية حادثا مائلا اطلقته «ارادة القوة» الهيتليرية . ولكن الصاروخ يذهب الى أبعد . انه يخرج بعد انقذافه عن المسار الذى قدره العقل البشرى له . فكأنى به تتغير شحنته تدريجيا في الطريق فلم يعد يندفع في الزمان او

التاريخ تبعا لسببية ولكن بمقتضى غاية . وفي نهاية مستقره وغاية مطافه يصيب الحادث الوجدان البشرى . ولا يحدد وقعه . في مجال حقل دراسة معين اى في حياة أمة او مجتمع ولكن في مجال شامل للانسانية .

ان الحرب العالمية الاولى لا تطيح بال «الهوهانزولارن» Hohenzollern والهابسبورغ Habsbourg فقط ولكنها تنشى فكرة جديدة تجسدت في شكل «عصبة الامم» .

ان وقع الحادث لم يهدم بعض البناءات السياسية فقط ولكنه ولد مفهوما دوليا للمسؤولية الا ان بعض التركيبات الذهنية الخاصة بالقرن التاسع عشر قد تخلفت كما نرى ذلك عندما تتوزع عصبة الامم المنبثقة من وعى الانسانية وغيف المستعمرات مرة أخرى .

ان الحرب العالمية الثانية لم تكتسح المظالم الهتليرية والنظريات العنصرية فحسب ولكنها أخرجت الى الوجود هيئة الامم المتحدة . وربما سيقول حداثنا ان القنبلة الذرية لم تهدم «هيروشيما» و «نجازاكي» فقط ولكنها وترت وارهقت الشعوب بالمسؤولية الدولية فعجلت بتكوين وعى عالمى .

ومن الغرور أن يقال ان هذا الامر كان يشغل العالم الفزيائى أو بانها يمر Oppenheimer عندما كان في فيافي النيفادا يضع آخر لمسة على القنبلة التى ستهدم هيروشيما .

ان وقع حادث ما اطلقت عنانه الارادة البشرية يخرج في النهاية عن رقابتها . انه صاروخ مقدوف في الزمان يتجاوز دائما تقديراتنا وحساباتنا الامر الذى أشار اليه عز وجل في قوله .. «ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» . والواقع أن المؤرخين الذين يصنفون التاريخ يعوزهم شئ من الحرية . او بعبارة أخرى فالتاريخ الذى تهدف اليه ارادتنا يكون دوما دون التاريخ الذى تحققه الاقدار ، فبسبب المنطق الكارترزى الذى يقتصر حكمه على الحوادث على النظر اليها من زاوية الاسباب أيقب على نظرهم جزء أساسى من مدار الاحداث .

وبما ان الصاروخ لا يندفع - في هذا الجزء - بفعل قوى تحصر في مبدأ السببية ولكنه يخضع فيما يبدو لمبدأ غائى . فان المؤرخين يعملون بهذا جانباً عظيماً من فلسفة التاريخ .

مع أن الحادث يحقق معناه الكامل ومؤداه الشامل

عندما يبلغ مرماه وغايته في التاريخ . الا ان اكتشاف هذا الجانب الثاني من معنى الحادث يتطلب من المؤرخ مزيدا من الحرية على ما يفنحه المنطق الكارتيزيائي .

وان «ايمانويل موني» أخذ هؤلاء « المتحذرين » استطاع بصره أن يرى - على حد تعبيره - شمولاً في الظاهرة التاريخية بحيث يأتي كل حدث فيها ليقوم بدوره لخير المجموع ونجاته .

وهذا التصور لا يحيط رغم تعمقه الا ببعض جوانب

الموضوع . فعلينا أن نغوص في قلبه وان نميز في الظاهرة التاريخية جانبين .. الجانب العرضي البشري والجانب القدرى كما يراه «موني» .

ولا أظن أن هذا التصور التاريخي يمكن الاستغناء عنه في لحظة بلغت فيها مأساة الانسانية أشد توترها ، حيث نرى بروقا مهددة فوق أعالي جبال الكاشمير ومستنقعات الفيتنام .

مالك بن نبي

الفيلسوف الفرنسي سارتر

يعرف بعض المثقفين المغاربة بواجبهم نحو التعريب

ان الواجب الاول للمثقف هو أن يحول دون سرب المستعمر السابق الثقافي ، فليس المهم هو مصدر الثقافة واصلها ، ولكن المهم هو ما سيفعل اثر هذه الثقافة ، فواجب المثقفين المغاربة الذين ارتدوا من منهل ثقافة المستعمرين هو أن يجعلوا من هذه الثقافة سلاحا ضد المستعمرين .

ولكن محاربة الامية بالنسبة للمثقف الذي تقل معرفته في كثير من الاحيان باللغة العربية ، تقتضى أيضا تعريب المثقفين المغاربة .

ومن واجب المثقف المغربي في نفس الوقت القيام بتحويل وثيد للغة العربية حتى تستجيب هذه اللغة لحاجيات العالم المعاصر وحتى يمكن استعمالها في مختلف الميادين بما في ذلك الميدان التقني . اذ لا ينبغي أن تنشأ لغة موازية للتعبير عن المصطلحات التقنية التي تروج في عالمنا المعاصر . وليست هذه القضية خاصة باللغة العربية فقد وجد الصينيون أنفسهم مثلا أمام صعوبات مماثلة ولكن يبدو أنهم تغلبوا جزئيا عليها .

« سارتر »